قلاع العالم العربي في العصر الوسيط

□ د. عبد الرحمن زكي

أدرك العرب أينما جاهدوا ، اهمية الحصون والقلاع ، فشيدوا كثيرا منها في الأماكن الحيوية ... في اقصى شمال بلاد الرافدين وفي شبه الجزيرة العربية ، وفي الشام وعلى سواحله المتعرجة والمطلة على البحر المتوسط ، بل وامتداد تلك السواحل في شمال القارة الافريقية ، وفي صميم الاندلس ، وما زالت اطلال تلك الحصون شامخة الى يومنا هذا تروى أحداث البطولة والجهاد .

تتناثر الحصون والقلاع في الوطن العربي بشكل يثير الدهشة ، تنتمي جميعها الى حقب التاريخ المتعاقبة ، من أيام الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، حتى أيام الحروب الصليبية ، من اقصى بلاد اليمن حتى العقبة ، وتلك حصون عربية بحتة لم تتأثر بالاساليب الاجنبية ، ومن صحراء الاردن الى قلب هضاب آسيا الصغرى ، ومع أن بعض تلك الحصون قد شيد على بقايا قلاع الرومان والبيزنطيين والعرب ، قبل الاعتداء الصليبي بمئات السنين ، فان مابقي منها عقب الحروب الطويلة في جبهات المسلمين والفرنج زاد على ماشاهدته تلك البقاع من قبل ، سواء في ضخامة العدد أو من ناحية الاسلوب العماري .

ولا تكاد تخلو مدينة ، أو ثغر من الثغور ، في الجزيرة العربية من قلعة أو حصن منيع ، تتطلع الى أعلا متحدية ، بالرغم من كر الاعوام والسنين ، وعمارتها العتيقة تدل على ماض تليد ، وهي تعبر الى اليوم عن احداث شتى مرت عليها .

ففى اقصى الجنوب ، في حضرموت واليمن ، الى قلب الجزيرة ، وفي شمالها نهضت القلاع العربية الشامخة ، والحصون المتطلعة ، يمر بها الحجاج والرواد في سلام وهدوء ، مع أنها كانت فيما مضى ، مواقع للنضال المرير والاستبسال العنيف • فقديما كانت اليمن بلد القلاع والحصون ، أكثر ماشيدها الحميريون للحماية ضد غزوات البدو • وقد وصف بعضها الهمداني الجغرافى العربى العظيم في كتابه (صفة جزيرة العرب) وذكر منها :

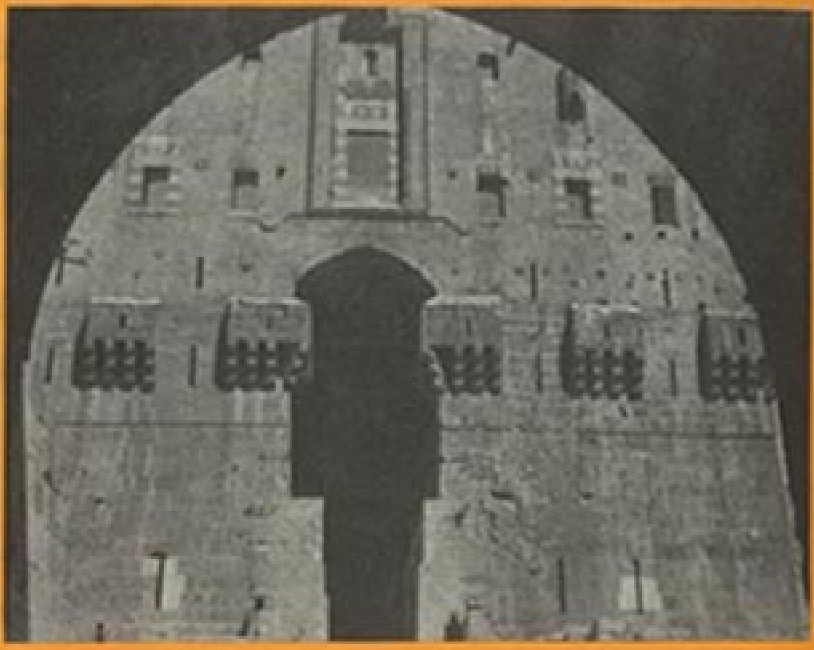

□ واجهة قلعة حلب والباب الرئيسى (من العصر الايوبي)

- قلعة نايت : (ينت) التي شيدها احد ملوك اليمن على قمة جبل ، قبل الاسلام بالف وخمسمائة سنة ، وكانت تشمل بعض النقوش التى حل رموزها « وهب بن منبه » الصحابي وترجمة هذه النقوش :

« شيد هذا الصرح في زمن كنا نجلب فيه غلالنا من مصر •

□ قلعة الجبل (قلعة صلاح الدين فوق المقطم) ويرى المدخل الموصل الى بئر يوسف •• عمارة البرج والجدار ترجعان الى العصر العثمانى

- وحصن الغراب : (١) تلك القلعة الخربة بحضرموت وقد كشف بعض نقوشها القديمة ، عبد الرحمن والى مصر اثناء خلافة معاوية بن ابى سفيان (٤٠ ــ ٦٠ هـ) • وقد ذكر باحث آخر ان هذا الحصن كان على مقربة من علن •

- وقلعة معين: وقال عنها ياقوت الحموي انها قلعة يمنية ، وقيل انها تقع في برقاش (يائل) • وفي راى الاصمعي أن برقاش (يائل) ومعين قلعتان

---

(١) اكتشف في عام ١٨٣٤ وقرئت نقوشه ومنها نص يقول : « لقد قضينا دهورا بين البنية هذه القلعة في عيشة راضية لا يشوبها ضيق أو عسر » •

باليمن شيدتا من بقايا المواد التى تخلفت من قلعة الصالحين (صيلى) وهى قلعة أمر ببنائها واحد من ملوك اليمن ، واستغرق تشييدها ثمانين سنة • وكثيرا ما تعرضت الآداب العربية لتلك القلاع العظيمة •

- ومن القصور العربية المحصنة : قصر غمدان في صنعاء والذى احتوى على عشرين طابقا ، ناطحات السحاب الى أن أصابته يد الخراب ، ولم يتخلف منه سوى بقاياه •

الطائف والمدينة

- وعندما بزغ نجم الاسلام تحت راية نبينا محمد عليه الصلاة والسلام لم تكن في مدن الجزيرة ، كالمدينة ومكة والطائف ، قلاع منيفة ، الا ان الطائف ، كان لها على ما يعتقد ، سور يحيطها • ومن المحتمل ، أنه كان هناك بعض الحصون والمعاقل الصغيرة في المدينة وخيبر ، لانه كان من تقاليد العرب ، خوض المعارك الحربية المكشوفة ، حتى اذا أقبلت السنة الخامسة الهجرية (٦٢٦ م) تآلف المشركون من القبائل العربية في اتحاد ، وهجموا على المدينة ، ابتغاء القضاء عليها، ووجد المسلمون انفسهم مضطرين لأول مرة، الى الالتجاء لنوع من التحصين، وكان على هيئة خندق ، أشار بحفره سلمان الفارسى (٦ هـ) • ونحن اذا أخذنا بأقوال المؤرخ العربى المسعودى ، لوجدنا أن سور المدينة لم يشيد الا في العام الثالث والستين للهجرة (٦٨٢/٦٨٣ م)

- أما اليهود ، فرغبة منهم في الدفاع عن أنفسهم ، قبالة اى هجوم محتمل ، ركزوا جهودهم في حصون منيعة في خيبر ، وقد منى المسلمون بخسائر بالغة أثناء هجماتهم على المواقع اليهودية ، بسبب ما كان يتساقط عليهم من معاقلهم • ولولا جراة الصحابة واقدامهم ، لما تحطمت أمامهم أبواب قلعة خيبر الجبارة • فلما سقط هذا الحصن ، وجد اليهود ، أن من العسير عليهم الصمود والمقاومة ، أمام أى هجوم جديد ، واضطروا في النهاية ، الى تسليم حصونهم لجيش المسلمين وقد لقي جنود النبي الكريم في حصن (صعب) بين ماعثروا عليه منجنيقا ، وما كادوا يرونه ، حتى تأكدوا من أهميته، وشرعوا في صناعة مثله ، بجد وهمة•

- وفي حصار الطائف ، عام ٧/٦ هجرية ، نشاهد المسلمين يقيمون لأول مرة منجنيقا أمام الحصن الذى استسلم لهم ، قبل أن تبدأ تلك الآلة عملها • كذلك افضى اصطدام جيوش العرب الفتية بقوات بيزنطية في عهد الخلفاء الراشدين ، الى تأكدهم من أهمية وخطورة الحصون واقامة المسالح فيها • ومن ثم عنوا بدراسة فن الحصار وصناعة آلاته الثقيلة •

وهكذا بدأ المسلمون الأول ، يتعلمون فن اقامة القلاع وبناء الحصـــون على خـير وجه ، بعد أن اندثرت معظم معاقلهم العتيقه التى شيدها أسلافهم في قلب وجنوب الجزيرة الغربى •

● ان العرب الاشداء ، بعد انطلاقهم للفتوح الظافرة من قلب جزيرتهم ، سـارت جيوشهم في ثلاثة اتجاهات • اخذ واحد منها طريقه في اتجاه القدس الشريف ، وسار ثانيها نحو دمشق • أما الجيش الثالث ، فقد اتجه لفتح العراق ووصـل الى الفرات ، عند البصرة تقريبا • ومر هؤلاء الشجعان ، بسلسلة من حصـون الحدود البيزنطية ، كانت تمتد من رأس خليج العقبة الى دمشق ، ومن دمشـق الى تدمر في قلب صحراء الشمال • ولقد أسهب في وصف تلك القلاع الرومانية البيزانطية ، طائفة من علماء الآثار الغربيين ، من أمثال برونو ، وفون دومـا سزوسكي في الكتاب العلمي القيم « الولاية العربيـة » وكان من أشـهر تلك القلاع : أدرو والدجانية ، وليجون ، وهى من بناء الامبراطور تراجان وغيره • ولقد استفاد ببعض تلك الحصون ، أمراء بنى أمية • فقد عاش الوليـد الثانى زمنا طويـلا في حصن الأزرق الرومانى الاصل الذى شـيد على أيام ديوكليتيان وماكسيميان ، ثم أعيد بناؤه في أيام الملك المعظم عيسى عام ٦٣٤هـ (١٢٣٦/٣٧)

● وعلى بعد قرابة عشرين ميلا شرق الزرقاء ، كانت تنهض قلعة رومانية عرفت في العصر الاسلامي باسم قصير الحلابات ، كان قدبدأ الامبراطور كاراكلا في بنائها عام ٢١٣/٢١٧ م ، ثم اكملها جستنيان عـام ٥٢٩ م ويقع اليـوم بالقرب من

قصير الحلابات ، مسجد صغير ، يرجع بناؤه الى النصف الأول من القرن الثامن الميلادى ، وقد شيده أمير أموى بعد أن أقام زمنا في القلعة الرومانية .

وتعلم بنو امية مزايا تلك الحصون وخصائصها البيزنطية ، لاسيما في المناطق التي كانت تحمى دولتهم أمام انطاكية ، ومن تلك الحصون : المصيصة ، والمثقب والمؤرة ، والبقاع ، وبغراس ، ومن ثم شيد الامويون قصورهم المنيعة ، على نمط تلك الحصون ، وكان مما شـيدوه :

١ ـ قصر الوليد في مينيا على بحيرة طبرية (٧٠٥ ـ ٧١٥ م) .

٢ ـ قصـر الوليـد في جبـل سيس .

٣ ـ قصر هشام المعروف بقصر الحير الغربي ، حوالي عام ٧٢٧ م

٤ ـ قصر هشام المعروف بقصر الحير الشرقى (١١٠ هـ ـ ٧٢٩ م)

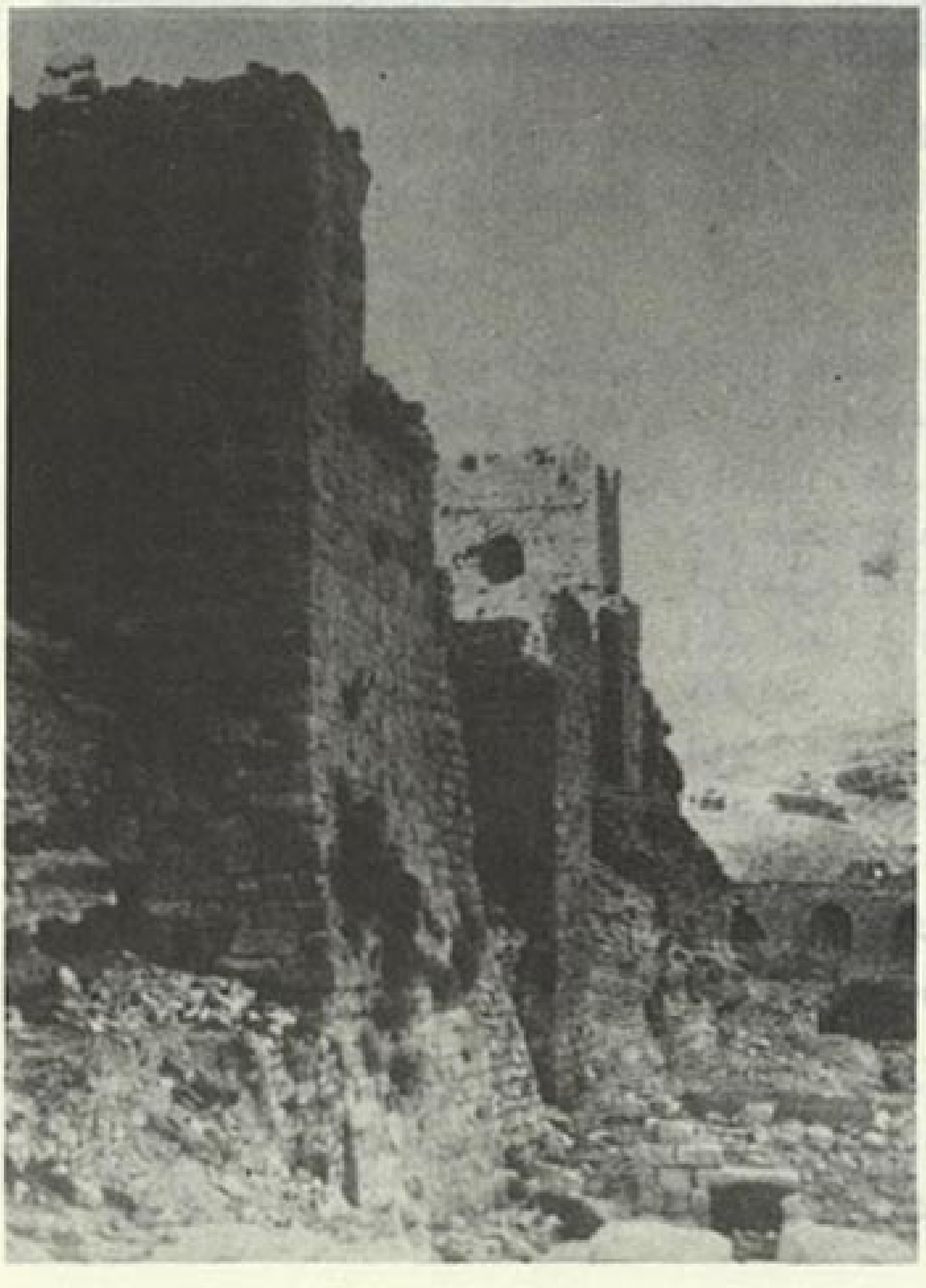

□ قلعـة الكرك
(في شـرق الاردن) .

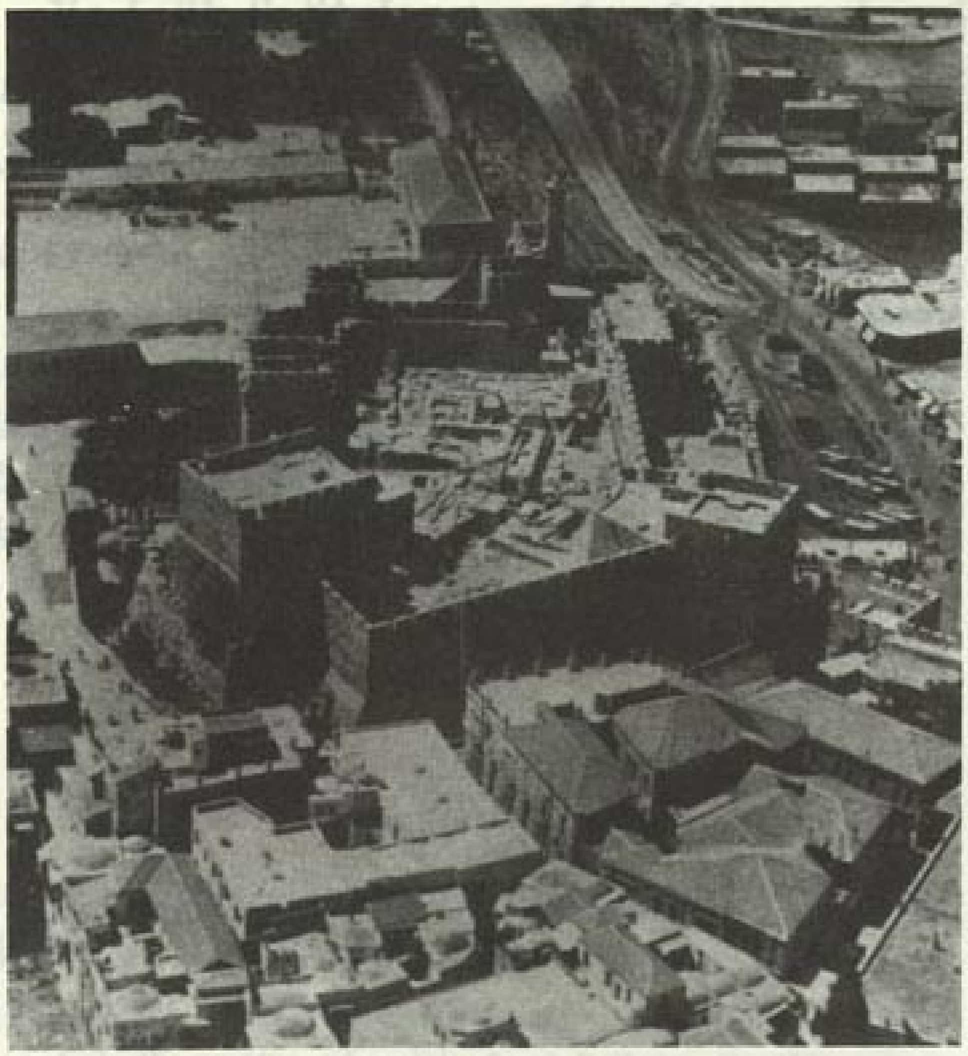

□ قلعــــة القدس
من الجــو ...

٥ ــ قصر هشام المعروف بخربة المفجر في اريحا بفلسطين .
٦ ــ قصر الخليفة الوليد الثاني في مشتى (٧٤٤ م)
٧ ــ قصر الخليفة نفسه المعروف بقصر الطوبة .

ومع أن جميع تلك القصور المنيعة شيدت في قلب بلاد المسلمين ، فقد اتبـع في بنائها طراز هندسـة القلاع ــ على الاقل في خارجها ، فقـد شـيدت جدرها من الحجارة ، واكتنفتها الابراج المستديرة ، والسقاطات (المشربيات) الحجـرية لتصويب السهام على المقتحمين والقاء المواد الحارقة عليهم .

● وتصادفنا اليوم على ربض مرتفع قلعة الوجه المشـيدة بالحجارة المنحوته ، على طراز عمارة العصور الوسطى، وتحيط بأجنابها الابراج والشرفات، التىيحتمى فيها الجند أثناء القتال ، ويتوسط المبنى فناء مكشوف ، فيه عين للاستسقاء .

واذا وصلنا بريدة ، لوجدنا مقر الحاكم يجتذب الانظار وهو يشــغل مبنى القلعة القديمة ، تلك التى تعبر عن أجمل عمائر المدينة ، مع مساجدها القديمة

وتربض القلعة فوق مرتفع في الشمال الشرقي من بريدة ، وتحتوى على اربعة طوابق ويمكن القول بأن تلك القلعة ترجع الى اكثر من ستمائة عام ، ولها برج ضخم يقدر قطره بخمسين قدما •

ويحمي حايل من طرفها الجنوبي ، قلعتان ، تقع كل واحدة منهما على تل مستقل وتعلو القلعة الكبرى قرابة خمسين قدما فوق مستوى المدينة • اما القلعة الصغرى « جبل عيارف » فتعلو الى قرابة تسعين قدما • وقد شيدت القلعة الكبرى من الحجارة المنحوتة وهي بأبراجها وشرفاتها تبدو في مجموعها بناء طريفا• هذا بالاضافة الى قلاع مكة المكرمة ، وتبوك بالحجاز والمعظم في شمال غرب الحجاز ، وقلعة الأخضر •

حصون بني العباس

● ولما اشتد القتال بين العرب والبيزنطيين ، بعدما انتقلت الخلافة الاسلامية الى بني العباس في بغداد ، أخذ الخلفاء يشيدون مناطق الحدود التى تفصل بين الدولتين فيما بين أعالي دجلة والفرات (منطقة الجزيرة) وصحراء الشام غرب الرقة والرصافة وحلب حتى ساحل البحر المتوسط وذلك لحماية الجزيرة والشام ـ الحصون الأولى عرفت بثغور الجزيرة والحصون الثانية عرفت بثغور الشام • وكان من ثغور الجزيرة املطية وزبطرة وحصن منصور ، والحدث ثم مرعش والهارونية والكنيسة وعين زربى • ومن الثغور التى تحمي الشام وكانت قريبة من الساحل الشمالي لخليج اسكندرونة : المصيصة واذنة وطرسوس التى شيدها الخليفة هارون الرشيد سنة ١٧١ هـ (٧٨٧ م) وتم بناؤها على يد فرج بن سليم الخادم ، وشيد فيها مسجدا • وفي طرسوس قبر المأمون بن الرشيد جاءها غازيا فادركته منيته وهو في بدندوز Podandos

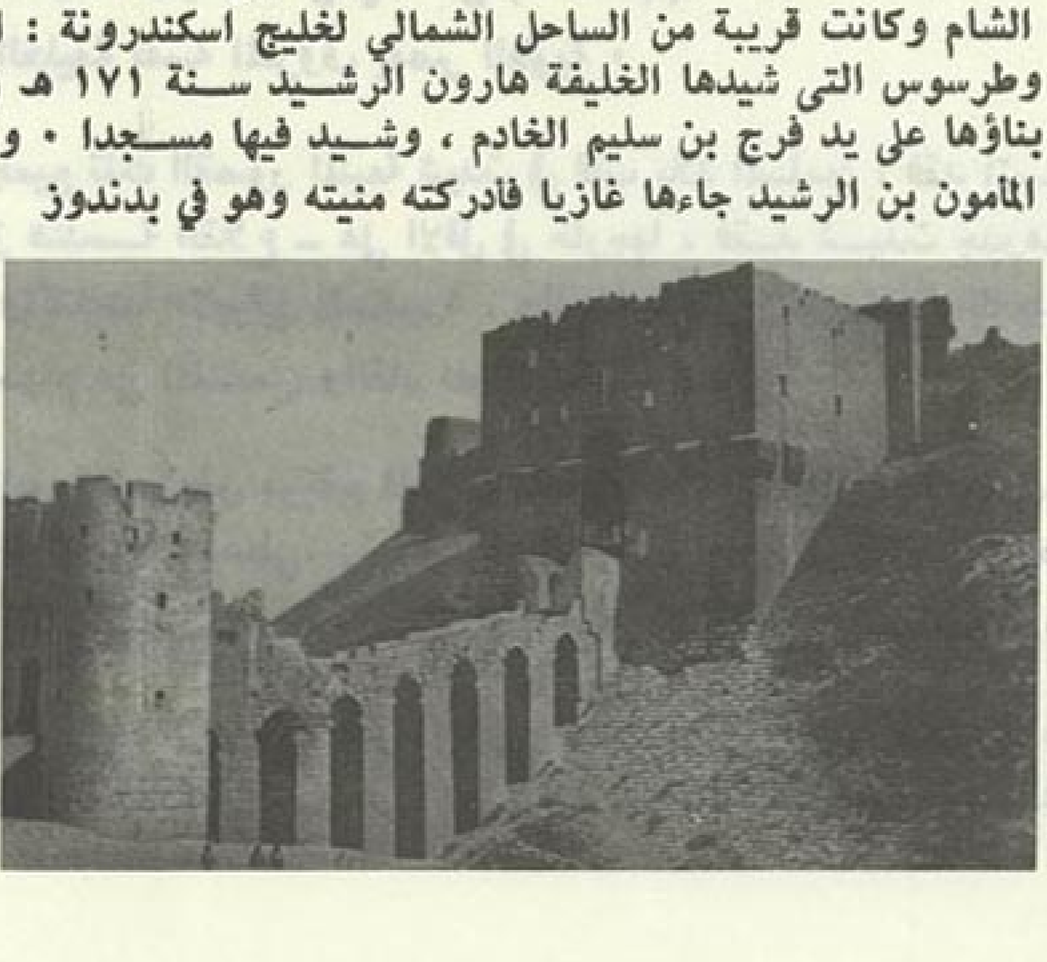

□ قلعة حلب الباشورة والقنطرة التى تعلو الخندق والمدخل الكبير وترى الزلاقة محيطة بسور القلعة □

القريبة منها ، ولبثت طرسوس على قول الجغرافي ياقوت الحموي ثغرا عربيا حتى كانت سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٥ م) فان نقفور ملك الروم استولي على الثغور ونزل على طرسوس فسلمها اليه من كان بها على الامان والصلح ، فخرج منها من المسلمين من أراد الى بلاد المسلمين واقام نفر يدفع الجزية ، ومن ثم خربت المساجد ، واستمرت طرسوس بيد النصارى الى سنة ٦٢٣ هـ (١٢٢٦) ٠

العصر الذهبي للقلاع الاسلامية

- يمكن القول بأن العصر الذهبي للحصون الاسلامية في الشرق العربي كان دون أدنى شك عصر الايوبيين ـ الذين خلفوا دولة الفاطميين في مصر والنوبة وغيرها، ودولة نور الدين محمود بن زنكي في الشام والجزيرة ٠٠ ولا دهشة في ذلك لان عصر الايوبيين كان عصر الجهاد والنضال ضد الصليبيين الذين اعتدوا على بلاد الاسلام والمسلمين ، فان قلعة الجبل (صلاح الدين) بالقاهرة ، و قلعتي دمشق وحلب وغيرها ، جميعها من القلاع التى شيدت في عصر الحروب الدموية التى دارت رحاها بين المسلمين والصليبيين في جبهات الشام وفي أعقاب تلك الحصون الايوبية شيدت قلعة القدس في أوائل القرن الثامن للهجرة (الرابع عشر الميلادى) ٠

- ان قلعة الجبل لتعتبر من أهم منشئات صلاح الدين الايوبي الحربية ، قرر بناءها في عام ٥٧٢ هـ (١١٧٦) وأتم وزيره قراقوش العمل فيها عام ٥٧٩ هـ ١١٨٣/٨٤) ٠ وينسجم تخطيط قلعة الجبل مع هيئة الهضبة الحجرية التى شيدت عليها ، فهي تتألف من ساحتين مربعتين تقريبا تكاد تستقل الواحدة عن الاخرى ٠ يشبه المربع الشمالي مستطيلا فيه أبراج بارزة ويفصله عن المربع الجنوبي جدار سميك وأبراج ضخمة وينفصل المربع الجنوبي عن الشمالي بوساطة زاوية قائمة ٠ وحدود هذا المربع ليست منتظمة وكان يحيط الجانب الشرقي للقلعة خندق لا تزال معالمه ظاهرة وقد شاهد الرحالة ابن جبير الأسرى الصليبيين وهم يعملون فيه ، فان الصخور قد حفرت في هذا الجانب الى عمق كبير بحيث تضاعف ارتفاع الجدار ، وهكذا تمكن صلاح الدين من أن يفصل بين جبل المقطم وبين الهضبة التى تمتطيها القلعة بوساطة هوة كبيرة ليمنع العدو اذا سيطر على المقطم من الافادة بالقلعة على خير وجه ، واستطاع هذا العاهل ووزيره قراقوش أن يشيدا سور القلعة كاملا وقويا بالقدر الذى سمحت لهما الظروف المحيطة ، فقد دعى صلاح الدين على عجل ليغوض غمار الحروب الطاحنة في جنوب الشام ـ فلسطين وخرج منها ظافرا ، اذ هزم الصليبيين وانتزع منهم بيت المقدس في شهر أكتوبر ١١٨٧ ٠ ولما خلفه شقيقه الملك العادل عام ١١٩١ ، كانت الأحوال قد استقرت الى حد ما ، ولذلك انتهز السلطان العادل تلك الفرصة وتمكن بما لديه من الثروة وماله من النفوذ أن يعيد تحصين المواقع الحربية في سورية ومصر وغيرهما ٠

وينسب الى العادل بناء الأبراج الثلاثة الكبيرة الكائنة في الجانب الجنوبى من القلعة وهي أبراج صافيتا · وقرقليان ، واليلوة ، بالاضافة الى الزيادة التي اضيفت الى باب القرافة في الجانب الشرقى للقلعة ، والجزء الخارجى في برج الرملة وبرج الحداد ، والجزء الداخلى في برج الصحراء ، والبرج الكبير الذى لم يبن منه سوى قاعدته ، والبرجان الكبيران المربعان فيالركن الشمالي الغربي · وقد تمت أعمال السلطان العادل البنائية عام ٦٠٤ هـ (١٢٠٦/٧ م) ·

قلعة دمشق

وقلعة دمشق ، مع انها بدىء تشيدها في أيام السلاجقة ، فهى كما هى عليه اليوم من أعمال السلطان العادل ، فقد بدأ عمارة القلعة ـ تاج الدولة تتش عام ٤٧١ هـ (١٠٧٨ م) الذى جعل فيها دار الامارة ، وتمتد تواريخ نقوشها الكتابية بين عامى ٦٠٥ هـ و ٦١٤ هـ (١٢٠٨ ـ ١٢١٧ م) ويقوم في جانبيها الشرقي والشمالي مدخلان عظيمان من طراز الابواب المنثنية التي على هيئة زاوية قائمة ، كما تعلو جميع أبواب القلعة السقاطات الدفاعية لرمى القذائف على المهاجمين ·

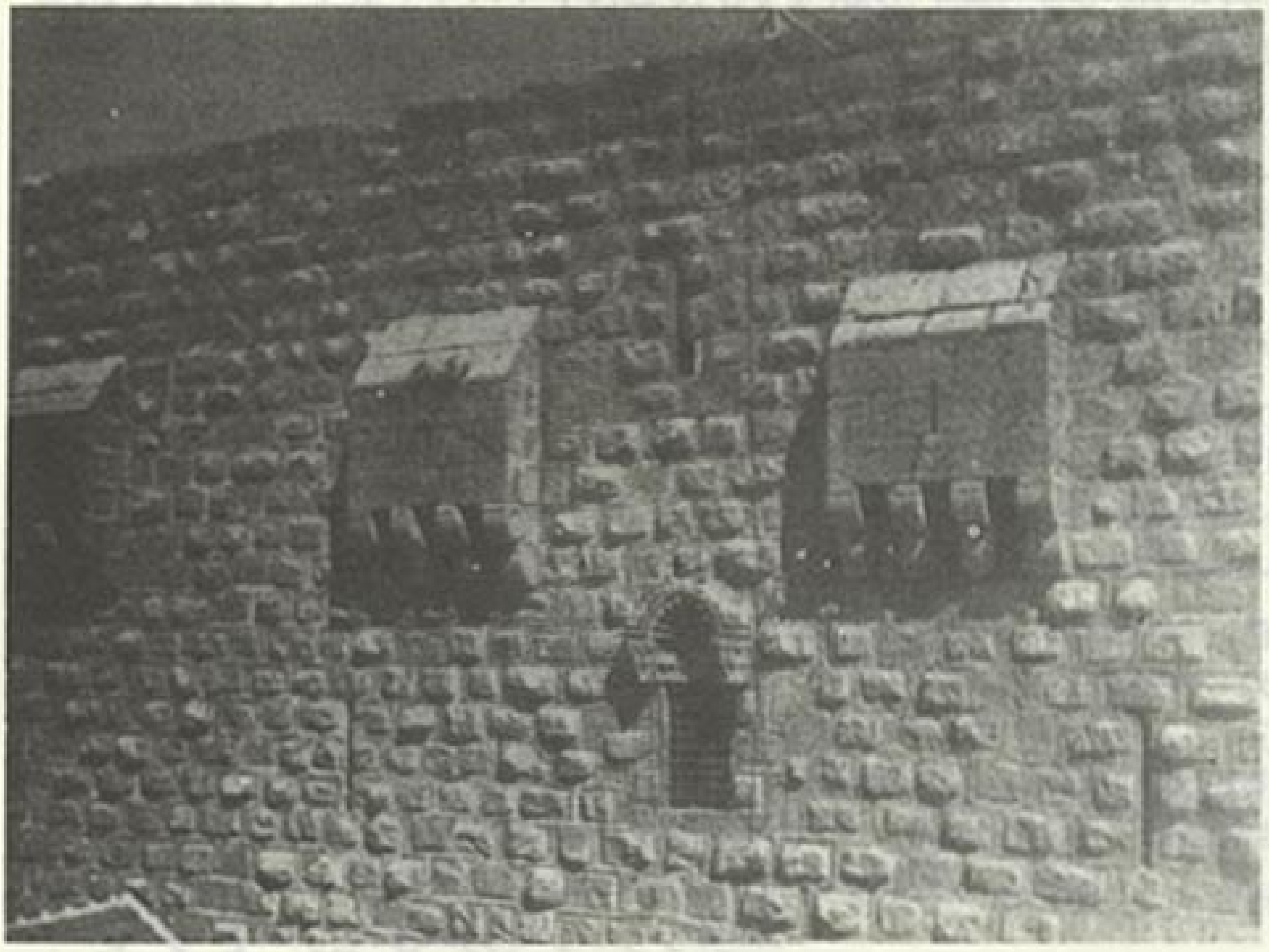

● قلعة دمشق من الخارج الواجهة الجنوبية لاحد الابراج

□ قلعة دمشق من الداخل ..

وقد زار قلعة دمشق ـ الرحالة ابن جبير (١١٨٤ م) وكتب عنها : « ولدمشق قلعة يسكنها السلطان ، منحازة في الجهة الغربية من البلدة وهي بازاء باب الفرج من أبواب سور دمشق ، وبها جامع السلطان ...

وكان بالقلعة حمام وطاحون وبعض الحوانيت لبيع السلع ، وبها أيضا دار الضرب ، وبها الدور والحواصل وابار المياه ومجار للماء ومصارف بحيث اذا تم حصارها وقطع عنها الماء قامت الآبار مقامه . وكان يطلق الناس على القلعة : الاسد الرابض .

قلعة بصرى

تتبين لنا مراحل بناء هذه القلعة التي تقع في جنوب الشام من قراءة الكتابات العربية المنقوشة على ابراجها الشاهقة ، وقد اتخذ الايوبيون من المسرح الروماني نواة لبناء القلعة ، فشيدوا حوله الابراج وعمروا فوقها ثلاثة أدوار : الاول جعلوه خزانا للمياه والثاني والثالث مستودعات كبيرة ، ثم أحاطوها بخندق عميق يمر فوقه جسر مؤلف من خمسة عقود ثابتة وسادس متحرك يرفع عند الحاجة بوساطة الحبال المثبتة عند باب القلعة وقد ظهرت على الابراج روعة فن العمارة الايوبية ...

ان أول برج شيد فيها زمن السلطان العادل أبي بكر بن أيوب وأيـام ولده الملك المعظم شرف الدين عيسى في مستهل عـام ٥٩٩ هـ (١٢٠٢ م) وتمت أعمـال آخر برج من أبراجها في زمن الملك الناصر يوسف خليل في عام ٦٤٩ هـ (١٢٥١)٠

ومن نصوص الكتابات المنقوشة على الجدران ـ تلك الكتابة المنقوشة على البرج الشرقي : « بسم الله الرحمن الرحيم عز لمولانا السلطان السيد الاجل الملك الصالح نجم الدنيا والدين أبي المظفر أيـوب ابن الملك الكـامل محمد بن أبي بكـر أيوب سلطان الاسلام والمسلمين قامع الكفرة والمشركين محيي العدل في العالمين منصـف المظلومين من الظالمين ، سلطان العرب والعجم صاحب الحرمين الشريفين ملك البرين والبحرين وملك الهند والسند واليمن ملك صنعا وزين وعدن سـيد ملوك العرب والعجم سلطان المشارق والمغارب الملك الأعظم نجم الدنيا والدين أدام الله أيامـه ونشر في الخافقين أعلامه وضاعف اقتداره بمحمد وآله وحسبنا الله ونعم الوكيـل ، مما عمل في ولاية الامير الاجل شجاع الدين عنبر الصالحى في سنة سبع وأربعـين وسـتمائـة » ٠

قلعة حلب

لننتقل الى قلعة حلب أهم آثار سورية الاسلامية وهي أهم معالم مدينتها الخالدة تنهض على تل مستدير غطي بزلاقة من الحجارة ٠ ونصل الى القلعة بوساطة قنطرة عبر خندق وتتألف هذه القنطرة من سبعة عقود ٠ فاذا انتهينا من القنطرة ، ندخل الى القلعة بعد أن نمر عبر مدخلها ذي الاركان المستديرة ٠ ويعلو هذا المدخل نقش كتابي للسلطان قانصوه الغوري يشتمل على تاريخ عام ٩١٣ هـ (١٥٠٧) ثم نعبر الخندق كله على قنطرة عالية الى أن يقابلنا برج المدخل الكبـير (عرضه ٣٠ مترا وعمقه ٣٥ مترا) الذي يمر في وسطه المدخل الرئيسي المغطي بقبو ، ثم ننثني الى اليمين لنجتاز المدخل الخارجي فيقابلنا باب من الحديد ، ثم ننثني الى اليسـار ، والى اليسار مرة أخرى ونعبر بابا آخر من الحديد ، ومنه الى ممر مقبى ، لنجـد انفسنا في الناحية الاخرى من البرج وندور يمينا مرتين ثم ننثني الى اليسـار ونجتاز بابا حديديا فنجد أنفسنا في الجانب الداخلي للبرج ٠

وقد ذكر ابن الشحنة أن الملك الظاهر غياث الدين غازي هو الذي غطى سفح التل بالحجارة وشيد بابها وكان ذلك في عام ٦٠٠ هـ (١٢٠٣/٤ م) ، وعمل الملك الظاهر لهذا الباب جسرا (قنطرة) ممتدا منه الى حلب ٠ وبنى على الباب برجين وعمل للقلعة خمس دركات وجعل لها خمسة أبواب من الحديد ، كما شيد فيها أماكن للجند وأرباب الدولة ٠

والواقع ان السلطان نور الدين محمود هو الذى شيد سور القلعة ومسـجدها وجعل في وسطها ميدانا فسيحا أسـماه الميدان الاخضر وشـيد مكان القصر القـديم

قصره الذهبي ، وحسن ابنه الملك الصالح أساليب الدفاع عن المدخل وجدد باشورتها القديمة وكتب اسمه عليها .. وازدهرت القلعة في أيامه حتى ملكها الناصر صلاح الدين الايوبي وأعطاها لشقيقه السلطان العادل سيف الدين أبي بكر فشيد برجا ودارا لولده . وقد بلغت القلعة في القرن الثالثعشر أوجها البنائي والتاريخي

وقلعة حلب غنية جدا بالنقوش الكتابية ، تلك الكتابات التي تؤرخ هذا الحصن الجبار عصرا بعد عصر ، نستهلها بما كان منها في عهد المرداسيين ، نجدها اليوم في الجامع الكبير للقلعة المسمى بجامع ابراهيم الخليل الفوقاني . وهي مكونة من خمسة أسطر من الكوفي (١)

بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمله الامير الاجل تاج الملوك ناصر الدين شرف الامة ذو الحسنيين خالصة أمير المؤمنين أبو سلامة محمود بن نصر بن صالح سنة خمس وستين وأربعمائة .

وهناك كتابات كثيرة تحمل معها اسم السلطان نور الدين محمود بن زنكي والوصى على الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين واسمه شاد بخت ، وأخرى للملك الظاهر غازى يوسف في سنة ثمان وستمائة (١٢١٠ م) .

وتوجد بالقلعة ثلاث كتابات أيوبية أخرى من عهد الملك العزيز بن الملك الظاهر وهذه الكتابات قريبة جدا من القصر الذي شيده هذا الملك . وهناك كتابات هامة لسلاطين المماليك المصريين : منهم السلطان قانصوه الغوري آخر من تولى منهم على مصر والشام ، بالاضافة الى رنوكه ، والسلطان الاشرف خليل بن قلاوون طارد الصليبيين نهائيا من الشام (١٢٩٢ م) ، والسلطان الملك الظاهر أبي سعيد برقوق والسلطان الملك الاشرف أبو النصر قايتباى ، كما أنه توجد بعض الكتابات للسلطان سليمان ابن السلطان سليم .

قلعة القدس

ان الذين شيدوا هذه القلعة هم المماليك حكام مصر في أوائل القرن الرابع عشر للميلاد وكان ذلك بعد بضع سنوات من تحريرهم حصن عكاء العنيد التي كانت آخر مدينة فلسطينية بقيت آنذاك في قبضة الصليبيين ، الا أن السور الرئيسي المحيط بالقلعة وأبراجها قائم على أسس أقدم ، ربما ترجع الى العصر الصليبي في القرن

(١) صبحي الصواف : الكتابات العربية في قلعة حلب ـ مجلة عاديات حلب ، ١ عام ١٩٧٥ ص ٢٨٠ ـ ٢٩٨

الثاني عشر للميلاد • وسميت القلعة اذ ذاك (حصن داود) باسم البرج الشامخ القائم على يمين مدخل القلعة الرئيسي • ويطلق هذا الاسم الآن على البرج المحاذى للمئذنة في آخر صحن القلعة حيث يقوم المسجد • ومن المحقق ان الحجارة الضخمة التى تتالف منها قاعدة هذا الحصن هى أقدم قسم في البناء القائم الآن ••

ويلاحظ أن مدخل القلعة ذو دورتين (اثنتائين) كل منهما مبنية على زاوية مستقيمة تشبه المرفق ، ولكلتيهما بابان ، الا أن البابين الداخليين قد فقدا • وهناك تجاه البابين الخارجيين الباقيين فتحتان عموديتان لمزلاج متراس البوابة (باب منزلق) وكان ممكنا الدفاع عن هذه البوابة من جهتي السور عند جانبيهما وكذلك من السور المقابل لها • واذا خرجت من باب القلعة الحالي تمر أولا بالجسر الحجري الذى بني على عهد الاتراك ومعظمه مطمور الان ، ثم بتحصينات خارجية ، ويليها جسر خشبى يقوم مقام جسر آخر كان يرفع عند الحاجة لمنع المرور منه ••

قلاع عربية اخرى

وقد حصن السلطان العادل الايوبى قمة جبل طابور ببنائه قلعة جبل طابور عام ٦٠٧ هـ (١٢١١ م) ولم يبق سوى أطلال قليلة منها ، وفي برج خرب نشاهد فتحة لرمي السهام (مزغل) يشبه في تفاصيله المزاغل الموجودة في قلعة الجبل بالقاهرة وهى تنسب الى عصر العادل •

وهناك قلعة النجم وهي تشبه حصنا مستدير الشكل شيد بالحجارة الجميلة المنحوتة وقد أقيمت على تل مستدير يحمي قنطرة عبر الفرات بين جرابلس وبالس وهي تشبه في بعض أجزائها قلعة بصرى ، ويدل النقش الكتابى الموجود عند المدخل أنها من بناء الملك الظاهر الايوبى فيما بين عامى ٦٠٥ و ٦١٢ هـ (١٢٠٨ ـ ١٢١٥ م)

قلعة شيزر

فتح العرب شيزر عام ١٧ هـ (٦٣٨ م) أثر فتحهم حمص وحماه تحت امرة أبي عبيدة بن الجراح وكان لاهمية موقعها الحربي أن تبادلها البيزنطيون والعرب مرات عدة ، الا أن صالح المرداسى صاحب حلب منح الامراء من بنى منقذ الكنانيين عام ٤١٦ هـ (١٠٢٥ م) اقطاعا في جوار شيزر ، وتمكن واحد منهم واسمه أبو المتوج مقلد بن نصر بن منقذ من الاستيلاء على كفر طاب في جوارها سنة ٤٢٣ هـ

(١٠٤١ م) وبنى راس الجسر المعروف بجسر بنى منقذ غربى شيزر (١) وجاء بعده خلفه ابنه ابو الحسن علي بن مقلد الملقب بسديد الملك وبسط سلطته حتى نهر العاصي وشيد حصن الجسر في غربى شيزر وعلى مسافة قريبة منه ليقطع عنها الاتصال وكان في شيزر وال للروم ولما طالت مضايقته راسل سديد الملك في تسليم حصن شيزر مقابل شروط اقترحها : منها مال يدفعه ٠٠ وهكذا سقطت شيزر بيد سديد الملك عام ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م) ويعتبر مؤسس الدولة المنقذية في شيزر ٠ وبعد وفاته تولى ابنه نصر بن علي الحكم ، ثم جاء بعده أخوه مرشد والد اسامه بن منقذ صاحب كتاب الاعتبار الذى يعتبر تحفة أدبية طريفة وتاريخا كاملا لاحداث زمنه ٠ وظلت هذه الاسرة العربية تسيطر على شيزر الى أن اجتمع جميع آل هذه الاسرة في وليمة حدث أثناءها زلزال عنيف عام ٥٥٢ هـ (١١٥٧ م) ولم ينج من بنى منقذ أحد سوى أسامة بن منقذ ٠٠٠ وقد حاول الصليبيون ومن بعدهم الاسماعيليون سكنى هذه القلعة (التى لم يبق سوى أطلالها) الا أن السلطان نور الدين محمود عاد فعمر شيزر ومنحها لحاكم يدعى مجد الدين أبو بكر بن الداية لتكون تحت سلطته ٠ وقد هدمت القلعة مرة ثانية عام ٥٦٦ هـ (١١٧٠ م) في أعقاب زلزال آخر وقضى على أعظم ترميمات نور الدين ٠٠

وجدير بنا ونحن نختتم هذا المقال أن لاننسى بعض قلاعنا في الشام التى نهضت بواجب الدفاع خير اداء ، كقلاع مصيف (القرن العاشر) وحمص وجارم وبفراس وعكار (حوالى عام ١٠٠٠ م) والهلبة وقاد موس ، والمرقب (١٠٦٢ م) ، والمضيق وبانياس وصافيتا ، وقلعة طرابلس ، وجبيل وحصن الفرسان العظيم ٠ وفي الاردن: قلاع حبيس جلدق (١١١٠ م) ، والشوبك (١١١٥ م) ، وحصن كرك مؤاب شرقى نهر الاردن (١١٤٣/١٤٢ م) وقلعة عجلون ، او الربض (١١٨٤ م) ٠٠

تلك هى بعض الحصون الاسلامية التى نهضت في بلاد العروبة ٠٠ وهى قليل من كثير ، جميعها يناديـنا بان نعنى بهـا ، ونصـلحها ونفيد منها ، فنقيم فيها متاحفنا الاثرية والتاريخية وندواتنا ومؤتمراتنا ، ونعنى بدراستها دراسة علمية كما فعل أهل الغرب ٠٠٠ أليست هى من تراثنا الخالد المجيد على مر السنين٠

د٠ عبد الرحمن زكى

---

(١) سهيلة هاشم : قلعة شيزر ـ مديرية الآثار بسوريه عام ١٩٦٣